الفصل الثاني

النورسي ورؤيته لأسباب تخلف المسلمين

- الإنسان ومهمته في الحياة
- النورسي ودور العقل في صناعة الحضارة

النورسي ورؤيته لأسباب تخلف المسلمين

لا يتحرك التاريخ بعامل واحد، كما أنه لا يتحرك بعوامل مرئية منظورة وحسب، كما أن المدى الذي يجب أن يبصره مفسر التاريخ أو فيلسوفه يجب أن يمتد إلى أكبر مساحة زمنية ومكانية تتشابك مع الواقعة موضوع التحليل... ولئن كان تاريخ الإنسان الفرد محدود التشابك منظوراً، يمكن قياسه بقياسات نفسية واجتماعية محدودة، فإن دراسة الحضارات في تشابكها وتفاعلها واتساع أمداء إشعاعاتها وأصداء إبداعاتها، ومراقبة عوامل التأثير الإيجابية والسلبية فيها... كل ذلك لا يمكن أن يتحقق بوسائل محسوسة تجريبية؛ بل لابد معه من وسائل فحص عقلية تجريدية، ومن هذه الناحية يصبح التاريخ -كما يقول العلامة الجزائري مالك بن نبي- "ضرباً من الميتافيزيقا، إذ إن مجاله يمتد إلى ما وراء السببية التاريخية، لكي يلم بالظواهر في غايتها".[1]

وما دام الماديون ينكرون "الغائية" ابتداء، ويؤمنون بأن الحضارات تمضي منطلقة من قواعد "عفوية صدفية" وتسير إلى لا نهائية غير واعية؛ فإن من الصعب أن يؤمنوا بوجود "عوامل ميتافيزيقية" وراء حركة التاريخ؛ بل إنهم يربطون الوقائع بعوامل اقتصادية آنيّة محدودة، وبتطور آلي صناعي تجريبي... ولا أدري كيف يعلل هؤلاء سقوط الحضارات، وهي في قمة ازدهارها الاقتصادي، الذي تواطأ ذووه على الترف والتقدم المادي؟! ولا كيف يعللون سقوط الإمبراطورية الرومانية خلال خمسة قرون كاملة -حسب تحليل جيبون- بحيث اعتبر المؤرخون المسلّحون بالرؤية العميقة للتاريخ أن تدفق القبائل الجرمانية خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد كان الضربة الأخيرة المباشرة التي تحللت على

(١) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: د.عبد الصبور شاهين ص٢١، دار الفكر، دمشق ١٤٠٢.

إثرها إمبراطورية روما، بينما كان لسقوط أسرة "إلهان" في الصين، ولسلسلة الصراعات القبلية السابقة بين الشعوب المغولية والهونية، ثم الهونية الجرمانية في المحيط الروسي -ثم الجرمانية القوطية-،[1] وما أفرزته المسيرة الداخلية للإمبراطورية الرومانية من فساد أخلاقي وصراعات طبقية واجتماعية، وطغيان كنسي كان لكل ذلك تأثيره البعيد والعميق في سقوط الإمبراطورية الرومانية... "فهناك إذن خلف الأسباب القريبة أسباب بعيدة تخلع على تفسير التاريخ طابعاً ميتافيزيقياً أو كونياً...".[2]

إن هذا الجانب الميتافيزيقي أو الكوني الذي يربط أشلاء التاريخ بطريقة عضوية ويعطي لمسيرة التاريخ معنى وعقلانية وغاية... إنما هو في الحقيقية جوهر عميق واضح يبصره: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾(البقرة:٣) ويؤمنون بأن تقدير الناس للزمان غير تقدير الله له، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(الحج:٤٧)، وبأن الله يحرك هذا التاريخ البشري وفق سنن ثابتة وغايات واضحة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(الأنبياء: ١٦-١٨).

وما وقع للإمبراطورية الرومانية في رحلة سقوطها التي امتدت خمسة قرون يقع لكل الإمبراطوريات التي مثلت ظواهر حضارية كبرى، ولم تكن مجرد دول ينزل عليها النازلون ثم يرحلون كما يرحل المحتلون الطارئون.

ووفق هذه الرؤية البعيدة العميقة في التحليل يرى مالك بن نبي أن موقعة "صفين" كانت بداية السقوط من المثال إلى الواقع -بكل معطياته السلبية والإيجابية- في رحلة الحضارة الإسلامية.

ويري أن مركب الحضارة الإسلامية قد تحلل بسقوط دولة الموحدين الذي

---

(١) المصدر السابق ص٢٢.

(٢) المصدر السابق ص٢٣.

كان في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها".[1]

ومهما يكن الاختلاف في الرؤية بيننا وبين بعض النتائج في تحليلات العلامة "مالك بن نبي" الحاسمة؛ فإن تحليله جدير بالتقدير، وهو -في محتواه الأخير- يمثل الرؤية الإسلامية الموضوعية التي لا تحصر الأشياء في اللحظة والمادة والمرئي، ولا تعمى عن الحقائق الكبرى، وبعبارة أوجز: تلك التي تبصر البعد الغيبي، وتكاد تلمس عناية الله المهيمنة على كل شيء، والتي لا يعقلها إلا العالمون!!

وفي يقيني أن هذه الرؤية الحضارية التي أبصرها المهندس الكهربائي الجزائري المتوفى سنة ١٩٧٥م "مالك بن نبي" كانت ستجد أعماقاً رحيبة وآفاقا فسيحة؛ لو أنها تفاعلت مع رؤية عالم طبيعي آخر، كان يعيش في مركز الخلافة الإسلامية الأخيرة، ويرى بعينيه "صفين" جديدة، وسقوط خلافة موحّدية أخيرة عاشت خمسة أضعاف خلافة الموحِّدين المغربية، وامتدت أضعاف امتدادها...[2] وهي الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م.

كان النورسي يرى كل ذلك، ويعيشه، ويحترق وجدانه به، وكان يبحث بوعيه وعقله عن أسباب ذلك الانحسار، ولاتهمه المادة ولا الأرض، فليس عنهما يبحث، وإنما يبحث عن أشجار الإيمان التي توشك -أمام لهيب المادية وحرائق الإلحاد- أن تذوي وتتحول إلى رماد.. ولعل بديع الزمان سعيد النورسي كان يسأل نفسه:

هل يمكن حقاً أن تموت بذور الإيمان؟

هل ينتهي تاريخ الأنبياء على الأرض؟

هل سيضيع الإسلام، وهو الدين الحق، والحجة البالغة، وتسود المادية والانحلال؟

---

(١) المصدر السابق ص٣١.

(٢) عاشت دولة الموحدين محصورة في المغرب والأندلس بين منتصف القرن السادس ومنتصف القرن السابع الهجري تقريباً.

هل يترك الله الحضارة الإنسانية تنحدر إلى هذا القاع دون شهداء على الناس يسعون لعودة الميزان القسط في قلوب الناس وعقولهم؟

أجل، كان كل ذلك يدور في خلده خلال عقدي العشرينات والثلاثينات من قرننا الميلادي العشرين، وهو يرى الامتداد الصهيوني الصليبي، والهيمنة الغربية والانحلالية تنشر سمومها دون مقاومة ذات شأن على هذه الأرض؟

ولم يكن أمامه -وهو لا يملك إلا إيمانه وعقله- إلا أن يحاول التعرف على "حكمة الله"، فعلَّه يبصر بعض الومضات التي تُطَمْئِنُ نفسه الملتاعة، بل لعله يكتشف بعض الأشعة الزاحفة من حيث يرى أكثرُ الناس المستقبَلَ مظلماً الظلمة كلها، وأن المادية أو اللادينية قد ورثت الأرض ومن عليها.

ومن حيث أراد أو لم يرد أصبح "بديع الزمان سعيد النورسي" من أكبر فلاسفة التاريخ المسلمين، الذين يحللون -بالمبضع الإسلامي- الوقائع والأحداث، ويبصرون عناصر الحكمة والعناية والرحمة وراء كل حدث... ولا يتطرق اليأس إلى نفوسهم مهما ادلهمت الخطوب وتكاثرت السحب... فلا شيء يقع في ملك الله إلا ما يريد، ولا يند عن الله شيء، والله لا يظلم الناس شيئاً، ولا يُجري شيئاً عبثاً في هذا الكون.

وهذه كلها "معالم" تمنح قلب المسلم الثبات والاستقرار، وتعطيه أملاً متجدداً، واستعلاءً على كل الآلام والنكبات، وصموداً في وجه كل العواصف، وثقةً مطلقة في الله.

وعلى سعة تراث "بديع الزمان النورسي" وتشعبه، فإنني أرى أن هذه البصيرة النافذة التي يحلل بها النورسي أفعال الله في حركة التاريخ، ويفلسف بها الأحداث والوقائع كانت من أكبر المفاتيح التي منحها الله إياه.

ومن خلال هذه الرؤية الإسلامية للوقائع، وبعمق لم يتوافر لغيره؛ أبصر النورسي ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(النمل:٨٨)، وعرف عن يقين علميّ أن الله ﷻ ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(السجدة:٧)، وأنه سبحانه ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ

شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)... نعم، فكل شيء في الوجود -هكذا يقول لنا النورسي- فيه جهة حسن حقيقية حتى ما يبدو أقبح شيء؛ فما من شيء في الكون، وما من حادث يقع فيه إلا وهو جميل بذاته، أو جميل بغيره، أي جميل بنتائجه التي يفضي إليها.

فهناك من الحوادث التي يبدو ظاهر أمرها قبيحاً مضطرباً ومشوشاً، إلا أن تحت ذلك الستار الظاهري أنواعاً من جمال رائق وأنماط من نظم دقيقة؛ "فتحت حجاب الطين والغبار، والعواصف والأمطار الغزيرة في الربيع تختبئ ابتسامات الأزهار الزاهية بروعتها، وتحتجب رشاقة النباتات الهيفاء الساحرة الجميلة".

"وفي ثنايا العواصف الخريفية المدمرة المكتسحة للأشجار والنباتات، والهازة للأوراق الخضراء من فوق الأفنان، حاملة نذر البين، وعازفة لحن الشجن والموت والاندثار، هناك بشارة الانطلاق من أسر العمل لملايين الحشرات الرقيقة الضعيفة التي تتفتح للحياة في أوان تفتُّح الأزهار، فتحافظ عليها من قر الشتاء وضغوط طقسه، فضلاً عن أن أنواء الشتاء القاسية الحزينة تهيئ الأرض استعداداً لِمَقدم الربيع بمواكبه الجميلة الرائعة".[1]

"بيد أن الإنسان المفتون بالمظاهر والمتشبث بها والذي لا ينظر إلى الأمور والأحداث إلا من خلال أنانيته ومصلحته بالذات، تراه تتوجه أنظاره إلى ظاهر الأمور وتنحصر فيها، فيحكم عليها بالقبح!".[2]

هذا مع أن القرآن الكريم -الذي هو منبع الأدب الخالص- يضم بين سوره تعابير تشير إلى إشارات في غاية اللطف والجمال إلى هذه الوجوه الحكيمة والستائر اللطيفة؛ فما نراه قبحاً في بعض المخلوقات، والآلام والأحزان؛ التي تخلفها بعض الأحداث والوقائع اليومية لا تخلو أعماقها قطعاً من أوجه جميلة، وأهداف خيرة، وغايات سامية وحكم خبيئة، تتوجه بكل ذلك إلى خالقها الكريم كما قدَّر وهدى وأراد.[3]

---

(١) الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٢٥٠، ط٢، دار سوزلر للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٢) المصدر السابق ص٢٥٠.

(٣) المصدر السابق ص٢٥١.

والفرد مهما كانت طاقاته وقدراته على استيعاب الحدث ونظراتُه الشمولية والتركيبية فإنه في النهاية بشر تحكمه أنانيته وفرديته، وهو عاجز -إلا من عصم ربك- عن رؤية ما وراء الأشياء، والبصرِ بالعواقب البعيدة والتجرد عن ربط الأحداث ربطاً مباشراً بشخصه، فهي خير ما دامت خيراً لشخصه، وهي شر ما دامت شراً لشخصه.[1]

ويضاف إلى عجزه هذا عجز آخر عن التركيب الكلي للأجزاء المتناثرة والوقائع المتضادة والأمور اللامعقولة التي يعايشها في كل يوم، ولا يعرف لها عللا جامعة، ولا حكماً قاطعة... لكن بديع الزمان سعيد النورسي -وهو فيما نعتقد ممن عصمهم الله من الزلل، واصطفاهم لرؤية الأشياء على حقيقتها وفي إطارها الكلي- يرتفع إلى المستوى السابق الذي يجمع الجزئيات، ويبصر ما وراء الوقائع ويضع يده على المعاني الحقيقية لأفعال الله.

فالسجن والاعتقال "لطمة حنان"، وأما المرض فيالَهُ من نعمة عظيمة، بل هو نوع من "الدواء"، وهو يُكسب المريض "أرباحاً طائلة"، وليس لك أيها المريض حق في الشكوى... بل عليك الشكر وعليك الصبر؛ لأن وجودك وأعضاءك وأجهزتك ليست ملكك أنت، بل هي ملك لآخَرَ يتصرف في ملكه كيف يشاء!![2]

وأما إبصار الجزئيات وما وراءها فهو مَعلم مهم من معالم الرؤية الإسلامية للتاريخ. ولعل الجزئية الشديدة، والتمزيقية الشائعة في تدوين الأحداث التاريخية وفق النمط التاريخي التقليدي، كانت من أبرز الأسباب في تخلف المسلمين في التنظير الاجتماعي والفلسفي للتاريخ... اللهم إلا في ذلك الاستثناء المعروف المتمثل في شخصية عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ.

لكن "النورسي" الذي تمتزج في ثقافته الجوانب العلمية والشرعية والحضارية، استطاع أن يمسك بهذه الخيوط، وأن يرتفع فوق الجزئيات، ويدعو

---

(١) رسالة إلى كل مريض ومبتلى، بديع الزمان النورسي ص٧، نشر مكتبة النور ١٩٩٢م ١٤١٢هـ، القاهرة.
(٢) المصدر السابق ص١٠.

إلى وضعها في إطارها الصحيح... يقول النورسي: "لندع الجزيئات يا صاحبي، ولنتأمل في هذا العالم العجيب، ولنشاهد أوضاع أجزائه المتقابلة بعضها مع البعض الآخر؛ ففي هذا العالم البديع من النظام الشامل والانتظام الكامل، كأن كل شيء فاعل مختار؛ حيث يشرف على نظام المملكة كلها، ويتحرك منسجماً مع ذلك النظام العام، حتى ترى الأشياء المتباعدة جداً يسعى الواحد منها نحو الآخر للتعاون والتآزر".

"انظر، إن قافلة مهيبة تنطلق من الغيب (قافلة النباتات) مقبلة علينا تحمل صحون أرزاق الأحياء... ثم انظر إلى المصباح الوضيء (الشمس) المعلق في قبة المملكة فهي تنير للجميع، وتُنضج المأكولات المعلقة بخيط رقيق (أغصان الشجر) والمعرضة أمامه، بيد غيبية. ألا تلتفت معي إلى هذه الحيوانات النحيفة الضعيفة العاجزة، كيف يَسيل إلى أفواهها غذاء لطيف خالص يتدفق من مضخات متدلية فوق رؤوسها، وحسْبُها أن تلصق أفواهها بها".[1]

إن هذه الرؤية الشاملة التي تتعامل مع لوحة الكون واضعة يدها على كل ما فيها من إبداع، مبصرةً ما وراء كل خط أو لون أو ظل أو بعد من معنى، ومبصرةً -كذلك- المعطياتِ الكلية الجمالية والنفعية والخيرية للوحة كلها... هذه الرؤية هي منحة ربانية تميز بها بديع الزمان سعيد النورسي، وهي من صميم الرؤية الإسلامية للتاريخ.

إن الماديين الذين لا يبصرون لوحة الكون بكل معطياتها، ولا يبصرون القوانين المعنوية الرحيمة التي تربط شتى الجوانب، وتقود السنن إلى غاية محددة، إنما هم قطيع من العميان الذين فقدوا البصيرة والملكة العقلية.

يقول بديع الزمان: "يأتي ملحد إلى هذا العالَم الذي هو معسكر مهيب رائع لجنود السلطان الجليل... وهو مسجد عظيم بارع، يُعظَّم فيه المعبود الأزلي ويُقدَّس، يأتيه وهو يحمل فكرة "الطبيعة" الجاحدة، ذلك الجهل المطبق... فيتصور "القوانين المعنوية" التي يشاهد آثارها في ربط أنظمة الكون البديع،

(١) الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٣١٦-٣١٧.

والنابعة من "الحكمة" البالغة للبارئ المصور سبحانه، يتصورها كأنها قوانين مادية، فيتعامل معها في أبحاثه كما يتعامل مع المواد والأشياء الجامدة!![1]

وفي مواجهة الرؤية التاريخية المادية التي تقيم نظرتَها للكون والحياة والإنسان على أساس الصراع والتضاد والتنافر، يقدم النورسي الرؤية الإسلامية الموضوعية التي ترى أن "التعاون" و"التكامل" و"التآلف" هي من الأسس التي تنبني عليها علاقات الأجزاء الكونية الاجتماعية، وهي-أيضاً- الطريق للتقدم والإبداع وتسخير عناصر الكون الكثيرة لخدمة الحياة والإنسان. والجدليةُ القائمة بين موجودات الكون؛ جدليةُ استثارةٍ وأنس وتلاقح وسعي لإنجاز المهام الضرورية لاستمرار الحياة وازدهارها...

يقول النورسي: "إن جلوة الفردية وَضعت على وجه الكائنات سِكة من سكك الوحدة، بحيث جعلت الكائنات في حكم كلٍّ لا يقبل تجزؤاً".

"فمن لا يتصرف في جميع الكائنات، لا يكون مالكاً حقيقيا لجزء منها أصلا. وتلك السكة هي أن موجودات الكائنات وأنواعها يتعاون بعضها مع بعض، ويعمل بعضها لتكميل عمل الآخر، كدواليبِ مصنعٍ منتظم، فتُشكل وحدةَ وجودٍ بصورةِ تَداخُلها وتعانقها، وسَبْقِ بعض إلى إمداد بعضها وإجابةِ بعض لسؤال بعضها، وتعاونها وتساندها؛ بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض كالعناصر الموجودة في جسد إنسان.

فمن أمسك بزمام عنصر، إذا لم يستطع أن يمسك أزمَّة الكل، لا يضبط زمام ذلك العنصر الوحيد... فهذا التعاون والتساند والتجاوب والتعاون، سِكة كبرى مشرقة جداً في سكك الوحدة...".[2]

ولكي نعطي لهذه النظرة النورسية قيمتها الحقيقية، فيجب أن نتذكر أنها كتبت في فترة زمانية كانت المادية الماركسية تعيش أيام وهجها وزخرفها، وكان الوقوف ضد مقولاتها يبدو وقوفاً ضد تيار عالمي مدعم بالغطرسة والقوة، ولكن

(١) اللمعات، بديع الزمان النورسي ص٢٨٢. ط٢، دار سوزلر للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٢) مجموعة اللمعات، بديع الزمان النورسي، ترجمة الملا محمد زاهد، ص٥٤٠، منشورات دار الآفاق، بيروت ط١، ١٤٠٥هـ.

النورسي الذي كان ينطلق من تلمذةٍ مباشِرة للقرآن، وإيمان مطلق بأستاذية القرآن للحياة والتاريخ، لم تبهره الضغوط الطارئة، فاستمَدَّ من ثوابت الرؤية القرآنية وخلودها واستعلائها على الأمراض الطارئة... استمد منها آراءه التي أثبت التاريخُ أصالتها... وليته عاش ليبصر معنا سقوط الماركسية والمقولات المادية، وبطلان الصراع، وبروز حتمية التعاون!!

الإنسان ومهمته في الحياة

بينما تسحق المذاهب الجماعية إنسانية الإنسان، وبينما تؤله المذاهبُ الفردية الإنسانَ، تأتي الرؤية الإسلامية للإنسان متوازنة بلا إفراط ولا تفريط... إنه خليفة الله، يستمد عظمته من التصاقه بمهمة الخلافة، ومتى تخلى عن العبودية الحقة التي هي جوهر مهمة الخلافة فَقَدَ وظيفته واستعبده الشيطان... إنه عظيم في إطار وظيفته الخلافية، أو بتعبير النورسي الدقيق:

"إن الإنسان هو نسخة جامعة لما في الوجود من خواص، حتى يشعره الحق ﷻ بجميع أسمائه الحسنى المتجلية بما أودع في نفس الإنسان من مزايا جامعة. وهو مرآة عاكسة لتجليات الأسماء الإلهية الحسنى، فهو يَعرف بضعفه وعجزه وبفقره وحاجاته، وبنقصه وقصوره قدرةَ القدير ذي الجلال، وقوتَه العظيمة، وغناه المطلق، ورحمته الواسعة.

فيكون الإنسان بهذا كأنه مرآة عاكسة لكثير من تجليات الصفات الإلهية الجليلة؛ بل حتى إن ما يحمله من ضعف شديد، وما يكتنفه من أعداء لا حدَّ لهم، يجعله يتحرى دائماً عن مرتكز يرتكز عليه، ومستنَد يستند إليه. فلا يجد وجدانُه الملهوف إلا اللهَ سبحانه.

وهو مضطر أيضاً إلى تحري نقطةِ استمداد يستمد منها حاجاتِه التي لا تتناهي، ويسد بها فقره غير المتناهي، ويُشبع آماله التي لا نهاية لها، فلا يجد في غمرة تحريه إلا الاستناد -من هذه الجهة- إلى بابِ غنيٍ رحيم، فيتضرع إليه بالدعاء والتوسل.[1]

(١) المصدر السابق ص١٣٦.

ويأتي السقوط حين يحاول الإنسان أن يقف وحده، بعيداً عن عون الله... إنه يحاول أن يكون مستقلاً؛ يستعبده عقله أو تستعبده حريته، وهو لا يدري أن عقله لن يؤدي وظيفته إلا بالزيت الذي يقتبسه من مصباح الوحي أو شمس الوحي... إنه سيتوه أمام ألغاز الكون، وسيقتل نفسه... كما أن حريته ستصبح وبالاً عليه إذا كانت حرية حيوانية لا تحترم ثوابت الإنسانية، ولا تلتزم بتوجيهات الله في الأمور والنواهي.

وها قد رأينا عبادة العقل والحرية، كما ظهرت في المؤتمرات العالمية الأخيرة، تقود الإنسانية إلى الدمار الأكيد... فالشذوذ الجنسي بصوره المختلفة يراد له أن يكون تشريعاً عالمياً، وحقاً إنسانياً، مما يثبت أنه ليس بالعقل ولا بالحرية المنفلتَين من وظائف الوحي وضوابط الشرع تستقيم الحياة الإنسانية، كما أن الإنسان المجرد من وظائفه سيقود نفسه إلى الدمار...

يقول النورسي: "أتحسبون أن مهمة حياتكم محصورة في تلبية متطلبات النفس الإمارة بالسوء، ورعايتها بوسائل الحضارة؛ إشباعاً لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية مِن دَرْجِ ما أُودع فيكم من لطائفَ معنويةٍ رقيقه، وآلاتٍ وأعضاء حساسة، وجوارحَ وأجهزةٍ بديعة، ومشاعرَ وحواسَّ متجسمة، إنما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجاتٍ سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاشا وكلا".

ثم يخاطب النورسي نفسه محدّداً لها خلاصة وظائفها في هذه الحياة فيقول لها بأسلوب حكيم جامع: "إن كنتِ تريدين أن تفهمي شيئاً من غايةِ حياتك، ماهيةِ حياتك، صورةِ حياتك، سرِّ حقيقة حياتك، كمالِ سعادة حياتك... فانظري إلى مُجمَل "غايات حياتك" فإنها تسعة أمور:

أولها: القيام بالشكر الكلي.

ثانيها: فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى.

ثالثها: إعلان ما رُكبت فيك من الأسماء الحسنى بلطائفها وإظهارها أمام أنظار المخلوقات في معرض الدنيا.

رابعها: إظهار عبوديتكِ أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال.

خامسها: التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتها لكِ تجليات الأسماء الحسنى.

سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، ورؤية تسبيحاتها لخالقها.

سابعها: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، ووزنُها بما وهب لك من نماذج مصغرة لمعرفتها.

ثامنها: فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم فيما يخص وحدانيةَ وربوبيةَ مبدِعه وخالقه وربه.

تاسعها: إدراك درجات القدرة الإلهية بموازين العجز المنطوية في نفسك".[1]

النورسي ودور العقل في صناعة الحضارة

يرى "إشبنجلر" أن الحضارة تقوم على "الإدراك المميز البديهي"، وأن الرؤية الشعرية هي المنهج المناسب لدراسة التاريخ، وأنه ليس بالعقل والمعرفة وحدهما يطرد التقدم البشري. واستلهاماً من ابن خلدون يرى العلامة مالك بن نبي أن "الروح" هي مرتكز الانطلاق الحضاري، ثم يأتي العقل في المرحلة الثانية، ليقدم صوراً من الإبداع الذي يؤدي إلى العلوم، ثم إلى الترف... ثم يبدأ الانكسار الحضاري حين تذوي الروح ويمتد العقل والترف. أما بديع الزمان النورسي فقد كان مباشراً في مواجهة طغيان العقل وتوظيفه توظيفاً دونياً سلبياً مادياً... يقول محذراً من هذا التوظيف المدمر للعقل:

"العقل عضو وآلة"، إن لم تبعه -يا أخي- لله ولم تستعمله في سبيله، بل جعلته في سبيل الهوى والنفس، فإنه يتحول إلى عضو مشؤوم مزعج وعاجز، إذ يحمّلك آلامَ الماضي الحزينة، وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذ إلى درك آلة ضارة مشؤومة. ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السُكر إنقاذا لنفسه من إزعاجات عقله؟ ولكن إذا بيع العقل لله،

(١) الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٢٣-٢٤.

واستُعمل في سبيله ولأجله، فإنه يكون مفتاحاً رائعاً بحيث يَفتح ما لا يُعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية؛ فأينما ينظر صاحبه، وكيفما يفكر، يرى الحكمة الإلهية في كل شيء وكل موجود وكل حادثة، ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقلُ بهذا إلى مرتبةِ مرشد رباني يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة.

فيا أيها العقل! أفق... أين الآلة المشؤومة من مفتاح كنوز الكائنات؟ ويا أيتها العين؛ أبصري جيداً؛ أين السمسرة الدنيئة من الإمعان في المكتبة الإلهية؟ ويا أيها اللسان؛ ذق بحلاوة، أين بواب المعمل والإسطبل من ناظرِ خزينة الرحمة الإلهية؟".[1]

والحق أن هذه الرؤية المحايدة لوظيفة العقل، تمثل صميم الرؤية الإسلامية التي انطلق منها النورسي على امتداد فكره؛ فالعقل بدون فقه قلبيّ وفطرةٍ إيمانية وغايات كريمة ربانية يصبح كالصاروخ الذي ينطلق ليدمر قواعد انطلاقه والذين أطلقوه!!

(١) المصدر السابق ص٢٣-٢٤.